# "كيميا» والقراءة الطباقية للتصوف

د. محمد مصطفى حسانين*

**تقدم رواية «كيميا» للشاعر والروائى وليد علاء الدين، قراءة سردية خاصة للتصوف، اعتمادا على وعى جمالى وسردى جسور، فتقدم رؤية مغايرة تعاكس إشارات نمط من الروايات ذاع مؤخرا فى تعاطيه مع الخطاب الصوفى ورموزه.**

لقد عرفت الرواية مؤخرا طريقها إلى التصوف فتواترت على نحو ملفت للانتباه النقدى ظاهرة الرواية الصوفية أو ما اصطلح على تسميته «الرواية العرفانية»، وهى شكل روائى منفتح على تجربة التصوف ومنجزها الأدبى وأشكالها الكتابية، فضلا عن شخصياته المؤثرة، وتشغيل الجانب الخيالى والروحى والإشراقى الذى تنسجه جوانب التسامح والبحث عن كونية الدينى فى الروح الإنسانية متجاوزة حدود التحيز والطائفية والتعصب. وأحسب أن الانتشار النسبى للرواية الصوفية أو العرفانية فى الرواية العربية، بهذا المعنى العام، ربما كان تحت وطأة بروزها الجلى فى السرد العالمى الراهن، ودعوى العولمة الكونية إلى ايجاد بديل روحى أكثر انفتاحا وتسامحا مع الآخر، خاصة مع سيادة مشهد كونى طافح بنزعة أصولية لا تخلو من تطرف وإلغاء للآخر المغاير. فتمثل ذلك، فى بروزها الجلى فى المشهدين العالمى والعربى مع مطلع الألفية الثالثة وظلالها النزاعة لكونية جارفة وعولمة مليئة التقاطبات والصراعات الحضارية.

لكن الملفت أن رواية «كيميا» تبحر بالقارئ ضد التماهى مع الخطاب الصوفي، أو الإيمان بسردياته الكبرى، والترويج لها، بل تخضعه لنوع من النقاش والتشكك والمساءلة. فتكشف عن وجه مستتر من وجوه «القراءة الطباقية» للنصوص، وهو نوع من القراءة ابتكره الراحل إدوار سعيد فى تفكيكه للاستشراق، مستقى من الطباق الموسيقى وعلم النفس الذى يعكس تقاطبا فى اللحن/ الذات رغم ما يظهرا من تماسك لحظي، فتكشف النصوص عن مفارقات ضمنية تنال من مصداقيتها السائدة بل الارتياب فيها، عبر السكن فى موقع مغاير يشتبك بالمهمش، مما يدعونا إلى عدم الثقة فى السرديات الكبرى المؤسسة.

لذا تستثمر رواية كيميا إحدى

وليد علاء الدين

سمات التخييل التاريخي، فى كونه لا يقع تحت وطأة الأساليب التدجينية للرواية التاريخية التقليدية، التى طالما حاولت الدفاع عن مرجعية احترافية تتماهى مع المرويات التاريخية المعتمدة، بل تحاول عبر التخييل التاريخى تطوير رؤية للتاريخ لا تقمع تنامى القصص، بل تصبح الرواية أداة بحث، وتفسير، وترقيع للحكايات والغائب منها، بل اختلاق وقائع تسد الثغرات والفجوات فى النصوص، وإعادة ابتكار علاقات محتملة تبنى حبكة مختلفة للتاريخ.

وتتبدى تلك الحبكة فى ظل قراءة طباقية للمتن من خلال تأويل الهامش، وإعادة بناء الصوت الجهير الحاضر من خلال الصوت الصامت المغيب، فتنقض المركزى بالملحق به. يتجسد هذا الطباق مع عتبة الرواية فنرى تدابرا بين صوتى المؤلف والرومي، فنسمع صوت الرومى مناديا: «اللّيلةَ الماضية، فى المنام، رأيتُ شيخًا فى حيّ العِشْق، أشار إليّ بيده: اعزمْ على

الالتحاق بنا». فى مواجهة صوت المؤلف الذاهل عن هذا النداء، ليعترض قائلا: «ولكننى قررت، قبل ذلك، أن أصنع ثقبًا فى الجدار الغليظ؛ لتحلّق روحُ كيميا.» وتعمق بنية السرد الرؤية الطباقية حين تجعل من «كيميا» تلك الفتاة الصغيرة مركزا لإعادة قراءة الرومى نفسه، وفى مقابل وفرة النصوص التاريخية حول قطب الصوفية، تجعل من شح المصادر التاريخية وبخلها حول شخصية كيميا ومآلها قطبا سرديا يتسم بالغنى التأويلى لنصوص الرومى نفسه. فلم يحتفظ التاريخ المدون سوى ببعض أسطر عن تلك الفتاة التى تبناها الرومى وزوجها لشيخه شمس التبريزى وهو كهل جاوز الستين فعاشت حياة بائسة وماتت فى ظروف غامضة. فهناك مصدران لتاريخ كيميا هما: «الأول رسالة فريدون بن أحمد المعروف بسبهسالار؛ والآخر مناقب العارفين لشمس الدين أفلاكي» (ص١٠٠).

تعول الرواية على هامشية شخصية «كيميا» فيما كتب حول الرومي، وفحوى هذا الغياب الذى يحيطها. لذا يتساءل الراوي: » كيف لشاعر حقيقي وصوفى عاشق أن يقدم طفلة قربانًا لاستمرار علاقته بمحبوبه؟ وكيف اختفت كيميا هكذا وكأنها لم تكن؟ لماذا لم يتأسف الرومى فى أشعاره على موت قربانه الرقيق؟ لماذا عاشت نكرة وماتت مجهولة القبر... لماذا أهداها لشمس رغم علمه بالحب الذى جمعها بابنه علاء الدين ورغبة الأخير فى التزوج بها؟ ... ما وضع المرأة فى عقيدة العاشق الأكبر؟» (ص ٦٧).

إن التاريخ وفق هايدن وايت إنما هو شكل من أشكال الخطاب يعتمد بنسبة كبيرة على الخيال السردي، ومن اللطيف أن حكاية كيميا استهوت الخيال السردى فجعل منها مركزا لبناء تاريخى خيالى وكأنه يجبر نقص المرويات التاريخية، ولذلك لم تكتف وليد علاء الدين بمحاورة التاريخ ونصوص الرومى بل دخل فى حوار خلاق مع ثلاث روايات حول الرومي. تمثل كيميا دورا هامشيا فى «قواعد العشق الأربعون»، لإليف شافاق مقابل علاقة الرومى بشمس التبريزى المركزية، وتقع كيميا فى قلب البؤرة السردية فى «بنت مولانا»، لمورل مفروي، أما رواية «الرومي: نار العشق» لنهال تجدد، فتمثل قراءة خاصة لعلاقة الرومى باتباعه واستنطاق عميق لشعره. ودون مواربة تقف الرواية موقفا ضديا لقراءة شافاق ومفروى لشخصية كيميا، فلم تر فيها شافاق إلا أداة لاستكمال الدراما،"ولكى تبرر عشق طفلة لرجل جاوز الستين، ماذا فعلتْ؟ صورت التبريزى رجلا «يجمع بين السحر والعذوبة، يمنحه شَعرهُ الكثيف المتهدل فوق عينيه وسمرة بشرته وسواد عينيه جاذبية تضاف إلى جاذبية نظرته الغامضة»، زفّت.. نظرة نسوية سخيفة وخيالية لِلمتصوف الأسطوري، مهدت لانجذاب

**رواية كيميا قائمة على استنطاق وتعميق علاقة حب بين علاء ولد ابن الرومى الاصغر وكيميا، ووقوع تلك الفتاة ضحية كيرا خاتون**

كيميا إليه «كما تنجذب الفراشة إلى النور «(ص١٠٥). وهذا ما يجعل المؤلف يرفض أيضا سردية مفروى التى جعلت كيميا بؤرة الحدث «وتصورها وكأنها ماتت عشقًا فى شمس التبريزي. يا له من مصير لطفلة لم تكمل عامها الثانى عشر؛ تهيم عشقًا بشيخ جاوز الستين! مفروى عين استشراقية أعمتها شمس الرومى الساطعة» (ص ٥٢). ولكن الرواية لا تفصح لنا بشكل مباشر عن موقفها من رواية نهال تجدد، وفيما يبدو أنها تستلهم منها بشكل ضمنى تشكلات العلاقات بين الرومى والتبريزى وحقد علاء الدين ولد على التبريزي.

لكن رواية كيميا قائمة على استنطاق وتعميق علاقة حب بين علاء ولد ابن الرومى الاصغر وكيميا، ووقوع تلك الفتاة ضحية كيرا خاتون الزوجة الثانية

**التاريخ وفق هايدن وايت هو شكل من أشكال الخطاب يعتمد بنسبة كبيرة على الخيال السردي**

التى أكلتها الغيرة عندما استحوذ عليه شمس الدين تبريزي، وخوفها من وقوع الرومى –المولع بالصغيرات مهما اجتهد فى تغطيتها بفلسفته ولفلفتها بكلماته الغامضة –فى فتنة الصبية، فألقت بها بعيدا عن شيخ الصوفية لتبعدها عنه لتلقيها عظمة فى فم التبريزى لتبعده أيضا عن الرومى الهائم به.

هذه الاستنطاق الجمالى يعيد ترتيب شخصية الرومى نفسه، فيبدد التسلم المطلق به، فتغدو أبياته السبعة التى دونها بخطه فى صدر المثنوى عن أنين الناى إنما هو صوت أنين كيميا حين «قدّمها مولانا قربانًا على مذبح شمسه المُعتم. ثم رقصا معًا على صوت أنينها المبحوح كصوت الناي، وحشرجات أنفاسها المذهولة كصوت الربابة. هل عرفت الآن لماذا اختار جلال الدين الناى والربابة ليقيم عليها طقوس رقصته؟ إنهما صوت أنين كيميا وحشرجات أنفاسها التى ظلت تطارده إلى لحظته الأخيرة» (ص ١٨٣). وبصوت علاء الدين ولد يصبح «المثنوى نَظْمٌ مسجوع لقصص ركيكة سطحية تدّعى أنها عميقة المعنى. وحجتهم فى تلك الركاكة أن اللّه لا يستحى أن يضرب مثلا لا ما بعوضة فما فوقها. كتاب يُلغز ثم يقول لك إن لم تفهم ألغازى أو تعجبك حكاياتى فليس العيب فيها، إنما فى ذاتك... راجع نفسك... انظر فى مرآتك!» (ص ١٦١).

---

* كاتب مصرى